18

ولِمَ كل هذه الحواجز؟!

على طريق العودة لبيت حنينا، لازمني إنهاك وشعور بالذنب أيضًا لأني لامست بكل تسامح مجتمع العدو، لأني تصرفت كما لو أن شيئًا لم يكن وبأني ابتلعت غضبًا كبيرًا كان يمور بداخلي. أضغط على كفّ ولدي وأنا ابتسم. أتظاهر، لست طبيعية. وكيف لي أن أكون؟ لقد تجاوزتني الأحداث تمامًا! لم تكن لي القدرة على السيطرة على الأمر! فعل الزمن والتاريخ فعلهما في السنوات التي انقضت. مجتمع بأكمله نشأ هنا واستقر فيما نُفيتُ وأهلي، نُهبنا وأفرغنا. نعود اليوم لنرى، نزور، ونتابع كسائحين حقيقيين كل هذا العرض المفروش أمام أعيننا بكل وقاحة. أيمكننا ابتلاع كل هذا بدون عبوس؟ حاليًا، أنا مشلولة تمامًا. ليس لدي أدنى وسيلة للدفاع، عليَّ تجميع قواي وشحذ أسلحتي الداخلية لأرتدّ. ولكن كيف؟ ومتى؟

على الطريق حواجز تنتشر كل كيلو مترين أو ثلاثة، تُوقفنا وتبطئ حركتنا. هه! إذا كل هذه الشواطئ التي تبدو طبيعية، كل هذه الطرق السريعة، هذه المدن بمقاهيها، حاناتها، مطاعمها وناسها المتجولين على أرصفتها، كل هذه اللوحات والاشارات التي تدل على الأمكنة... لمَ تحتاج إلى حواجز لحمايتها؟ ما فعلوه ليحسوا بأنهم مهددون لهذه الدرجة؟ وممن؟ مني؟ من ابني؟ من ناسي المنعزلين هناك أو من أشباحهم التي تحوم فيهم وفينا؟ عند أي لحظة من التاريخ بالذات بدأ كل شيء؟ أيها كانت اللحظة المقررة الحاسمة حيث انقلب كل شيء؟ قولوا لي! ألا يتطلب هذا شروحًا؟ أين تتموضع هذه النقطة المركزية؟ هذه العقدة المستعصية التي يجب الحسم فيها. قل لي، أيها المجتمع العدو لنعد إلى نقطة البداية بداية كل شيء. لنواجهها جيدًا. لننظر إليها سوية في نفس اللحظة، "بليز"، وبعدها لينظر كل منا في عين الآخر. قد يبدأ حينها شفاؤنا من هذا الوجع الذي أصابنا من ذلك الوقت. لعلك تعترف حينها بما سرقته مني، أو لعلني أستطيع أن أحدد بأصابعي حدود ما سُرق مني. ربما أستطيع آنذاك إعلان حدادي الأبدي ونتوصل ربما، أيضًا وأخيرًا، لأن نتحاور بهدوء. لننظر في الأمر... لعل، قد، ربما... ها أنا أهذي. ضباب كثيف يحطيني ويغمر كل وضوح وقدرة على المحاكمة. أنت العدو! هكذا أراك الآن، مسلح بكذبة كبيرة وبتقنية عالية، أنت الأقوى، لكنني أخمن كذلك مخاوفك وهشاشتك. أما أنا، فأني أمتلك سلاحًا لا يُدمّر، رؤيته غير ممكنة، هو في

داخلي، يدعى الجرح، جرحي. وفي خارجي هيكل مقاوم وصلب. إذًا، لنتوقف عن الكذب أحدنا على الآخر.

أقف على شرفة شقة ساري سيجارة في يد وقدح في أخرى، اتأمل المرتفعات الممتدة قبالتي. أتساءل عن هذه التلال وكيف استطاعوا، على ضآلة مساحتها، استغلال كل جزء منها، بل كل ذرة للبناء عليها. حين أحني رأسي أرى البيوت المجاورة وحركة ساكنيها، غسيلهم المنشور على الشرفات والأسطح، الشاحنات التي تنقل البحص والرمل. كأنها حياة عادية، إنما ثمة ما يختبيء خلف هذه الحركة الهادئة. سرٌّ ما، يدركه هؤلاء الذين يدرون ما وراء الأكمة، مصارعة، مباراة شرسة للحفاظ على الأرض وتَمَلّك المكان، التمسك به وعدم إفلاته. بعيدًا، أبعد وقليلًا أبعد، ثمة طرق تحفر الهضاب وثمة أثر لجدار يُبنى. جدار يجيء ليعقّد كل شيء، ليرسّخ الفتنة.